البطولة كما يصورها الأدب الجاهلي

بقلم الدكتور ناصر الدين الأسد

مقدمات هذا الموضوع لا تقل قيمة عن الموضوع نفسه ، بل هي منه في الصميم ، ولا يستقيم وجه الحديث عنه الا بها . واذا كان بعض المقدمات نافلة وفضلة يستكثر بها الباحث لامر لا يتصل بجوهر البحث اتصالا وثيقا ، فان الترابط المتين بين مقدمات هذا الموضوع والموضوع نفسه يجعل التجاوز عنها اخلالا بالمنهج وانتقاصا من البحث .

وفي هذا الموضوع قضيتان لا بد من التلبث عندهما ، تتمثلان في طرفي العنوان : « البطولة » و « الادب الجاهلي » ، ولكل منهما حديث طويل نجتزيء منه هنا بالقدر الذي لا يخرج به عن التقديم ولتمهيد .

* *

اما « البطولة » فنحسب ان لها من تعدد المعاني ما يقتضي التوضيح والتحديد ثم اختيار المعنى او المعاني التي قد يشملها عنوان هذا البحث ويدور عليها الحديث .

واول ما يعرض من معانيها ان يقصد بها « بطولة الحرب » وما ينطوي فيها من الفروسية والقوة والغلبة . ولهذا المعنى ، او « المضمون » ـ كما يحب المحدثون ان يقولوا ـ صورتان من التعبير :

اولاهما ـ ما اطلق عليه الباحثون الغربيون اسم « الشعر القصصي » او « شعر الملاحم » ، وهو ما يجتمع لشاعر نظم قصيدة طويلة يقص فيها ضروب البطولة التي تمثلت في رجل فرد ، او في عدد من الرجال الابطال، او يؤرخ فيها حوادث امة في فترة بعينها من تاريخها ، فيصوغ ما انحدر اليه ممن سبقه من اخبار الوقائع وصور الحوادث ، ويتسلسل بها في اسلوب قصصي متتابع .

والصورة الثانية من صور التعبير عن « بطولة الحرب » هي التي اطلق عليها العرب القدماء اسم « شعر الحماسة » وهي هذه القصائد والمقطعات المتفرقة التي ينظمها شعراء متعددون ، يفخرون فيها بانفسهم او بابطال قبيلتهم وقومهم ويشيدون بما ابدوا من ضروب القوة والفروسية ، وما اتيح لهم من اسباب النصر والغلبة . فيدور قصيدهم حول شتيت من المعاني المتفرقة لا ينتظمها اسلوب قصصي متتابع ولا استقصاء لاجزاء الحوادث والوقائع ، وبذلك ، لا يتم لها استكمال صورة واضحة المعالم لسير موقعة او لاعمال فرد او لحياة امة .

اما المعنى الثاني للبطولة فيتسع حتى يشمل « بطولة النفس » في كل ما يتمثلها به المجتمع الذي يعيش فيه الانسان ، فيصبح البطل مثلا يحتذى في : الصبر على الشدائد ، وتحمل المشاق ، ونجدة المضاف ،واغاثة الملهوف ، وبذل ما في الوسع ـ وفوق ما في الوسع ـ قرى للضيف ونائلا للسائل ، وفي : الحكمة ورجاحة العقل وسداد الراى والمنطق ،والحلم عن قدرة ، والوفاء بالعهد ، والحفاظ على الذمام ، واباء الضيم ، والترفع عن الدنايا ، والتحلى بكل ما يراه مجتمعه فضيلة في النفس والخلق .

وثالث هذه المعاني ان يقصد بالبطولة معنى اصطلاحي في النقد الادبي حين يكون البطل في الاثر الفني هو « الشخصية الاولى » او مجموعة « الشخصيات الرئيسية » التي يرمز بها لتصوير صفات بعينها تمثل جوانب في حياة الناس والمجتمع ، يكون فيها الخير والشر والقوة والضعف، والوفاء والغدر ، والحب والبغض ، فتدعو الى الاعجاب والمحاكاة ، او الى الازدراء والنفور .

* *

اما القضية الثانية من مقدمات هذا الموضوع ، وهي التي تتمثل في الشق الاخير من العنوان ، فهي قضية « الادب الجاهلي » . والحديث عن هذه القضية حديث عن مصادر هذا البحث واصوله ، وبيان لقيمتها التاريخية والفنية . ولهذا الحديث جانبان :

اولهما ـ الشعر الجاهلي : واحسب ان قضيته قد فرغ منها بعد ان صححت الدراسة العلمية الحديثة موازينه ، وهدات الضجة التي افتعلت من نحو ثلاثين عاما ، وتكلف اصحابها من العناء والمشقة في قسر النصوص وتحميلها ما لا تحتمل من الدلالات وفي تعميم الاحكام الجزئية تعميما واسعا يبعد بها عن الصواب ـ تكلفوا في كل ذلك ما اثار حولها وحولهم غبارا كثيفا لفت الانظار وغشاها حينا ، ثم انقشع ولم يبق منه ـ في مقاييس العلم الصحيح ـ شيء سوى آثار يسجلها مؤرخ الادب حين يعرض لهذه الحقبة من تاريخنا .

ولا نحسب ان باحثا جادا يتبع ما جد من الدراسات الحديثة في هذا الموضوع ، ثم يستقرىء اصوله القديمة استقراء قائما على الفهم والبصر والمعرفة بحياة القوم ، لا نحسب ان باحثا هذا شانه الا وهو يدرك ان الدراسة الحديثة بشقيها : الداخلي الذي ينقد النصوص نقدا فنيا ، والخارجي الذي يتتبع مصادرها تتبعا تاريخيا ، قد اثبتت لهذا الشعر ـ في مجموعه ـ الصحة والاصالة ، وان كان عرض لبعضه ما يعرض ـ مع التفاوت ـ لاداب الامم كلها في جميع العصور من وضع لبعض الشعر او نحل ، ومن اضطراب في نسبة بعضه وفي روايته لاسباب تاريخية معروفة .

والجانب الثاني للادب الجاهلي هو : النثر . ولا نقصد به هذا القدر من العبارات القليلة التي بقيت من تراثنا ، من مثل : سجع الكهان ،والتلبية والحكم ، والامثال ، فهذه كلها قد تزود الدارس باشارات ودلالات يستخلصها منها ويرتب عليها بعض الاحكام ، ولكنها في مجال هذا البحث ليست بذات غناء .

وانما نقصد بالنثر هذا التراث الخصب الذي خلفته لنا الجاهلية من سير رجالها ونسائها وحوادث قبائلها وايامها ، وصور مجتمعها وحياتها، بادق تفصيلاتها واوضح معالمها ، وتناقله الافراد والاجيال ـ كما يتناقل

التراث القومي في كل امة ـ الى ان دون بعد زمن، فبقي لنا في طيات كتب الادب والتاريخ والنسب ، وامتلات به صحائف مما كتب ابو عبيدة على النقائض، ثم الجاحظ والمبرد وابن قتيبه والطبرى ؛ ثم ابن الانبارى في شرحه على المفضليات ، وما جمعه لنا ابو الفرج في اغانيه ، وابن عبد ربه في عقده، وغيرهم .

* *

ومن هنا نتلمس بداية الطريق ، فهذا النثر الذي تاخر تدوينه قرنا وبعض قرن هو ميراث الجاهلية في مادته كلها ، تناقلته الجاهلية تناقل الحفي به ، والحريص عليه ، الحافظ له. كانوا يتناشدون شعره ويقصون نثره في مجالسهم ومواسمهم واسواقهم وسمرهم ، يتنافرون ويتفاخرون، وينقطع لرواية الشعر والاخبار رواة يتفرغون بعينه فينسبون اليه ، ورواة من القبيلة لا يقتصرون على شاعر منها وانما يجمعون بين شعرائها كلهم ، يروون من شعرهم واخبار ذلك الشعر مفاخر القبيلة في وقائعها ومحامدها، ومضوا على ذلك رواية بعد رواية وجيلا بعد جيل ، الى ان قيض لهذا التراث التدوين والتسجيل . وذلك شان كل تراث قومي في كل امة كذلك كانت الالياذة والاوديسة ، وكذلك كانت المهابهارتا والرمايانا تناقلها الرواة وتناشدها الناس ، ثم مضت على ذلك ازمان الى ان دونت .

ولو اخذنا ايام العرب في الجاهلية يوما يوما ، لوجدنا في كل يوم من الاخبار القصصية ومن الشعر الحماسي ، وما يطوي في ثناياه خصائص الملاحم كما عرفتها الامم الاخرى :

فاولاها ـ انه ادب قصصي ، يحكي في تسلسل وتتابع قصة واحدة اصلية قد تتشقق عنها قصص تتصل بها وتوضح بعض جوانبها .

وثانيتها ـ ان هذا الادب يقص وقائع وحروبا تقتتل فيها قبائل ،ويصطرع فيها ابطال ويسقط فيها صرعى وتسيل دماء ، وتظهر فيها آيات من البطولة والشجاعة والقوة .

وثالثتها ـ ان هذا الادب يصور في كل يوم من ايامه نماذج بشرية ذات ملامح واضحة وقسمات بارزة سواء اكان ذلك في شجاعتها وقوتها ام في فضائل نفسها وخلقها .

ورابعتها ـ ان هذا الادب لم يصطنعه واحد بعينه في زمن متاخر ، كما فعل فرجيل في انيادته ، والفردوسي في شاهنامته ، وملتون في فردوسه، وانما جرى في النفوس مع الوقائع ودار على الالسن مع الحوادث ، فهو ميراث الامة كلها ، وهو تراثها الشعبي كما نقول اليوم ، وكذلك كانت الملحمتان اليونانيتان والملحمتان الهنديتان .

وثمة امر لا بد من تدبره وادارة الحديث عليه ، وهو اننا لا نحب ان نتكلف لهذا الادب تسميته «بالملاحم » ـ بالمعنى الاصطلاحي ، على اجتماع خصائص الملحمة له وتوافر عناصرها فيه . وليس بمجد امة ان تتزيد وتستكثر في ادعاء امور استكملت صورتها على وجه محدد عند امم اخرى ، واستقامت لها دلالات اصطلاحية استقرت معالمها في التاريخ الادبي . وليست لكل امة ملحمة ـ بهذا المعنى ، ولا غير عليها في ذلك، فليس يشين امة الا يكون فيها ما كان في غيرها ، ولكل امة ـ في نشاتها وتطورها ـ بيئة طبيعية وظروف اجتماعية واصول للفكر والتصور والتعبير ـ مغايرة ما لغيرها ، وبذلك تتغاير صور النشاط الفكري والفني في الامم ، وكلما تقاربت بيئاتها الطبيعية وظروفها الاجتماعية واصول فكرها وتصورها وتعبيرها تشابهت صور نشاطها الفكري والفني ، وامكنت اذن الموازنة والمقارنة . اما اذا اختلفت المقدمات فلا بد ان تختلف النتائج، وحينئذ لا سبيل الى تعسف الطريق وقسر الالفاظ والدلالات لمجرد التشابه العام الطبيعي في العقل الانساني والوجداني البشري والتطور الحضاري .

وهذا الميراث الادبي الذي خلفته لنا الجاهلية ليس «عملا فنيا »اذا وحدة مترابطة متصلة . حقا انفيه شعرا كثيرا ولكن اطاره العام الذي يمسكه من حوله ويجمع اطرافه ويصل حلقاته هو النثر ـ وكذلك كان شان تراثنا الشعبي الى عهد قريب حين كان الشاعر على ربابته يقص حكاياته ، وكان يلقيها نثرا تتسلسل معه القصة ، وحين يصل الى مواقف بعينها ينتقل من القصص النثري الى الانشاد الشعري ، وكذلك هو ادبنا الشعبي المدون من مثل قصة « عنتر » و « ابو زيد الهلالي » و « والف ليلة وليلة » . ولعل هذا الادب كان في الجاهلية كذلك حين كانوا يقصون اخبار وقائعهم وايامهم ، ولعل هذا الذي وصل الينا منه كان عندهم عملا فنيا ذا وحدة متصلة ، ولكنه يقينا ليس كذلك كما هو الان بين ايدينا ، ولم يقصد الرواة والعلماء الذين جمعوه ودونوه في القرن الثاني ـ الى ان يكون ذا صفة فنية ، وانما كان هدفهم جمع الشعر ، ثم كان كل هذا النثر القصصي لشرح الشعر وبيان غامضه وتفسير اشاراته التاريخية .

* *

وبعد

فمن هذا التراث الجاهلي الخصب : شعره ونثره ، نستطيع ان نستشف صورة « البطولة » كما عرفوها واحسوا بها ، ونستطيع ان نرسم ملامح « نموذج » البطل الذي كانه العربي الجاهلي . هذا النموذج الذي ما زلنا حتى الان ـ على اختلاف العصر وتغير المعالم والمظاهر ، تهتز له نفوسنا ، ونتشوف له ونتشوق . ويبدو ان هذا النموذج العربي الجاهلي بلغ من الاصالة وعمق الحياة في نفوس هذه الامة مبلغا جعل نماذج البطولة في الادب الشعبي جاهلية ، على ما اضيف اليها من ظلال والوان متعددة في كل عصر : فسيف بن ذى يزن ، وعنتر ومهلهل وكليب ـ كل هذه النماذج جاهلية ، انحدرت اصول قصصها ومعالم شخصياتها من الجاهلية ، وانسربت في القرون قرنا بعد قرن ، ترتدي في كل مرحلة غلالة جديدة تنسجها حياة الناس في ذلك العصر ، ولكنها لا تكاد تخفي اصولها العربية الجاهلية الاولى .

ولصورة هذا « النموذج » من البطولة العربية خطوط عامة عريضة ، نكتفي ـ في هذا المجال ـ بالاشارة اليها ، وندع تتبع اجزائها واستقصاء تفصيلاتها الى دراسات مستقلة تختص كل دراسة باحد خطوط هذه الصورة : تسبر اغواره وتستشف دلالاته ، وتستشهد له بما يكفل توضيحه من الشعر والنثر ، ويكون لها مجال اخر غير ما نحن فيه في مؤتمرنا هذا الذي يجدر به ان يقتصر على ارساء الاسس وتاثيل الاصول ليستهدي بها ـ بعد ذلك ـ عند التطبيق في مجال البحوث الجزئية والدراسات التعليمية .

* *

واول ما يظهر للباحث من قسمات هذه الصورة خط كبير اصيل ،يتصل بجوهر البطولة العربية الجاهلية واساس كيانها . فليست بطولة العربي في الجاهلية بطولة غيبية خرافية ، يصور مصادر القوة فيها الوهم ،ويهدى

ـ التتمة على الصفحة ١١٧ ـ

البطـولة في الادب الجاهلي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤٤ ـ

بها الخيال ، فينكرها العقل ، ويستعصى فهمها وتعليلها على الانسان ، ولا يملك حيالها الا التسليم والاستسلام . لم يكن البطل العربي مـن رحم السماء على قمم الجبال ، ولم يكن من سلالة الالهة وانصاف الالهة واشباهها ولم تكن في بعض اعضاء جسمه مكامن للقوة نفثتها فيه قوى سحرية غيبية ، ولم يكن تؤيده ارواح غير منظورة ، ولم تكن تسعى معه او تسعى عليه وحوش اسطورية خرافية .

بل كانت البطولة العربية الجاهلية تنبع من اعماق الانسان ، مـن اغوار وجوده البشري ، وتسعى معه على الارض ، وتدرج في المجتمع من حوله ، كانت بطولة انسانية بشرية تستمد وجودها وحياتها ومظاهرهـا من واقع الناس : يرونها ويسمعون عنها فيعرفونها ولا ينكرون من امرها شيئا ، ويبصرون لها مشابه تستقيم مع الفهم وتنطبق على الحقيقة الواقعة، كانت بطولة واضحة مبسوطة كوضوح صحراوات الجزيرة وانبساطها .

ومن هنا اختلفت البطولة العربية كما يصورها الادب الجاهلي عـن البطولات الاخرى التي صورتها لنا الملاحم المعروفة والاداب الشعبية عند الامم من غير العرب .

وثاني الخطوط العامة في صورة هذا « النموذج » ان هذه البطولـة لم ترن اليها ابصارهم وتهف اليها نفوسهم ، ولم تعش في وجدانهم وتخلد في ذاكرتهم وتتناقل قصصها اجيالهم ، لما فيها من ظاهر البطولة الحربية في شجاعتها وقوتها وغلبتها . لقد كانت هذه البطولة الحربية مظهرا يطوي في ثناياه دلالات ، ووسيلة تتحقق بها معان ، وكانت هذه الدلالات والمعاني هي التي تكون « المضمون » الحقيقي للبطولة ، وبغيرها تكـون البطولة الحربية ـ فيما يرون ـ شيئا تافها عابرا ضائعا لايستحق الذكر والتخليد . ومن اجل هذا نجد كل فخر بالشجاعة والقوة ، وكل تمدح بمقارعة الاقران والغلبة عليهم ، مقرونا ـ قران ترابط وتلازم ـ بذكر تلك المعاني والدلالات لتتم الصورة الحقيقية للبطولة فالبطل يقارع الاعداء ويصرعهم : يذب بذلك عن الحرمات ، ويحمي الذمار ، ويدرك الثار ويعف عند المغنم ، او ياخذ ممن يملك ليقسمه على من لا يملك ، ويقرى بـه الضيف الطارق حين لا يجد له قرى ، او ليدفع عن مستجير اذى ، او يفي بذمة ويحفظ عهدا .

كانت « البطولة الحربية » اذن عند العربي في الجاهلية وعاء تملاه هذه الجوانب المتعددة من « بطولة النفس والخلق » ومنهما معا تكتمـل الصورة الحقيقية للبطولة التي عاشت في ضمير العربي وتمثلها وجدانه.

بل لقد بلغ احساس العربي بهذه المعاني من الارهاف والعمق مبلغـا جعله يخرج بها الى المثالة ، فيبلغ قمة التمثل لها والشعور بها : لقد كانت هذه المعاني اصلا استجابة طبيعية لروح المجتمع من حوله ، فاخذ يحققها فيما يقتضيه مثل هذا المجتمع وقيمه وما تفرضه عليه احتياجاتـه الاجتماعية ، ولكنه ـ لفرط احساسه بهذه المعاني ، وعمـق تجاوبه باصدائها ـ اصبح همه ان يحققها على اي وجه جاء هذا التحقيق : فصار يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه وصار يجير الوحش فلا يهاج ، ويجير الجراد فلا ينفر ولا يؤذي ، بل لقد صار يجير على الدهر .

حتى اولئك الصعاليك الذين اتسمت حياتهم في ظاهرها ـ بالفردية والخروج على المجتمع ، والذين كان ينبغي ان تقودهم هذه الحياة الـى الانخلاع من هذه المعاني والانفصال عن رحابها ، بحيث تنحصر بطولتهم الفردية في مظاهر القوة وحدها وتقتصر على النهب والسلب لذاتهما ، فيعوضون بما يغنمون ما افتقدوا من روابط اجتماعية ـ حتى اولئك الصعاليك تمثلت فيهم هذه المعاني تمثلا جليا ، وحسبنا ان نقرا في ذلك قصائد الشنفري وخاصة لاميته ، وقصائد تابط شرا وخاصة رثاءه الشنفري ، وقصائد عروة بن الورد ، وغيرهم ـ وهم كثر ـ لنستبين في وضوح ان تمدحهم وتمجدهم لم يكن بمظاهر بطولتهم في القتال ، وانما كان بما تحققه هذه البطولة من معان نفسية وخلقية واجتماعية .

وخط ثالث عام في صورة هذا « النموذج » هو هذا الاحساس العميق الذي كانت تجيش به نفس العربي نحو : فرسه ، وسيفه ، ورمحه . لم تكن مطايا والات للقتال ، بل كانت نفوسا حية ، يعايشها ، ويناجيها، ويتسمع لحديثها ، فيفهم عنها وتفهم عنه ، ويستجيب لها وتستجيـب له ، ويشركها في امره ، كانت بضعة منه : من نفسه ، كانت بعض اسرته، لها اسماؤها والقابها ، يدعوها بها ، ويعتز بالنسبة اليها ، فكـان اقصى ما يصل اليه البطل ان يعرف به ، ومن هنا كان : فارس الضحياء ،وفارس الشوهاء ، وفارس الشهباء ، وفارس الصرماء ، وفارس الشميط ، وفارس قرزل ، ومن هنا كان : صاحب الصمصامة ، وذو الرمحين ، وملاعـب الاسنة ، وجذل الطعان .

هذه الصلة النفسية الصادقة كانت تابى على الفارس ان يمتطي فرسه لغير ما مكرمة يكسبها لنفسه او لقومه وتلك المشاركة الوجدانية الحية كانت تربا بالبطل ان يمتشق حسامه او يفوق سهمه او يرمي برمحه في غير ما محمدة يصيب خيرها غيره ، فتؤثر عنه ويشيع خبرها ، فتملاه عزة وفخرا .

وخط رابع من خطوط صورة هذا « النموذج » ان البطل العربي في الجاهلية قد تدفقت بطولته في حسه تدفقا عميقا اصيلا حتى تفجرت بها نفسه بيانا وشعرا ، وجميع « النماذج » الكبرى للابطال الجاهليين الذين خلد تاريخنا ذكرهم ـ لهم من الشعر ما يبلغ لبعضهم ديوانا، ومع الشعر اجتمعت لهم الحكمة ، وسداد الراي ، والبصر النافذ في شئون الحياة . فكان كثير من هؤلاء الابطال يسودون قومهم في السلم فيصدرون عـن رايهم ، ويقودونهم في الحرب فلا يعصون لهم امرا .

وكما كان الناس يقصون اخبار البطل في وقائعه فتكون مادة للاحتذاء والاقتداء وشحذ الهمم واستحياء النفوس ، كانوا كذلك يروون شعره الذي تتفجر به نفسه بيانا عن بطولته في الحرب وعن مآثر هذه البطولة ومصادرها النفسية ونتائجها الاجتماعية ، وبذلك كان هذا الشعر يسن من الخلال ما يبقى حيا في نفوس الاجيال بعد الاجيال .

ومن خلال هذا التراث نستطيع ان نستشف مقومات النفس العربية وخصائص بطولتها ، ولا بد حتى تستقيم صورتها في نفوسنا ان نصل ما بيننا وبين هذا التراث ، وان نعيد تمثله تمثلا حيا مستقصيا واعيا حتى يكون تجددنا تطورا ناميا متصلا بجذور اصيلة ثابتة .

ناصر الدين الاسد

صدر حديثا :

الحياة الجنسية عنـــد العرب

للدكتور صلاح الدين لمنجد

* دراسات جريئة عن الحياة الجنسية عند العرب تكتب لاول مرة
* موقف الاسلام من الجنس
* الحرية الجنسية على اختلاف العصور
* الجنس في الادب الشعبي .
* تحليل دقيق لاهم التآليف الجنسية .